الحلقة السابعة والعشرون

برنارد شو

obeikandl.com

عندما يُذكر أدباء وكتاب (المسرح) على مستوى العالم.. من أقصاه إلى أقصاه، في القرن العشرين، فلابد وأن يذكر في مقدمتهم (شو).. عبقري المسرح وفنانه، وساحره وساخره الذي لا يجارى، والذي ما كان يقارنه أبناء جيله من الأدباء والكتاب إلا بـ «عميد» كتاب المسرح البريطاني التاريخي العتيد (وليم شكسبير).. نفسه!! فقد أصبح (شو) بعد أن انتصف به العمر.. (قمة معاصرة) بأعماله المسرحية الفذة، التي تدفقت - بعد بلوغه الأربعين -: من «بيت الأرامل» و«تلميذ الشيطان».. إلى «قيصر وكليوباترة».. إلى رائعتيه الخالدتين: «القديسة جان دارك» و«العودة إلى مينوشالح».. اللتان حملتاه - وقد ناف عن السبعين - لنيل جائزة (نوبل للآداب) عنهما عام ١٩٢٥م.. أمام شكسبير وقمته (التاريخية)، التي أسرت القلوب والعقول واحتلت الوجدان بـ (رباعية) مسرحياته التاريخية الخالدة: «هملت» و«مكبث» و«عطيل» و«تاجر البندقية».

* * *

لقد كانت قمة صعوده إلى تلك (القمة).. هي التي تستحق أن تروى بدأب هذا الشاب الأيرلندي النحيل والطويل (شو)..

القادم من (دبلن) إلى (لندن)، وهو في العشرين من عمره.. بـ«مواهبه» وأحلامه و(حماسته).. في أن يصنع لنفسه (مجداً) في عاصمة (الإمبراطورية)، دون أن يعرف أحداً فيها أو يعرفه أحد.. كانت تتعثر به خطاه طوال التسع سنوات الأولى من قدومه إلى (لندن).. رغم رواياته الخمس التي أبدعها وقدمها طوال تلك السنوات.. على أمل أن تفتح له دوحة الأدب أبوابها، وتستقبله على الأقل.. كـ «أديب» واعد، لكن الأبواب لم تفتح.. فلم تلق تلك الروايات الشابة ذلك الرواج الذي كان يرجوه، بل ولا حتى إقبالاً متواضعاً.. يطمئنه على حاضره ومستقبله.. حتى كاد أن يجمع مقتنياته القليلة التي قدم بها.. ويعود أدراجه ثانية إلى (دبلن)، لولا حبه القديم والأصيل.. لـ «الموسيقى» - الذي يحتل المرتبة الثانية من اهتماماته - وعشقه وعنايته بأعمال كبار الموسيقيين من أمثال (فاغنر) وموزارت وباخ.. والذي فتح له الباب.. (موارباً) ليدخل منه إلى عالم (الموسيقى) في الصحافة، بـ«العمل».. ناقداً موسيقياً لمجلتي «النجمة» و«العالم»، لكن الصحافة البريطانية العتيدة والخبيرة.. سرعان ما اكتشفت فيه ما هو أكبر وأهم وأوسع من أن يكون ناقداً موسيقياً (فقط)، لتضعه في مكانه الطبيعي.. (ناقداً مسرحياً) في واحدة من كبريات المجلات التي تعنى بـ(المسرح) وشؤونه آنذاك، وما يُقدم عليه من أعمال مسرحية.. في بلد عرف بريادته للمسرح، ليسطع ويلمع.. وقد شارف الأربعين، فيقدم وهو في الثانية والأربعين.. خمس (مسرحيات) دفعة واحدة.. كانت وكأنها دقات إنذار بـ «قدومه».. حتى يفسح الآخرون له الطريق،

أو كأنها تعبير عن الانتقام من فشل رواياته الخمس التي قدمها طوال تلك السنوات التسع الأولى من قدومه إلى (لندن).. دون أن تجد آذاناً تسمع لها أو أعيناً تقرؤها!! كان عنوان المسرحيات - عند نشرها - ساخراً هازلاً: (مسرحيات سارة وغير سارة)..!! ولكن عند تقديمها على خشبة المسرح.. كانت تحدث زلزالاً من الإعجاب والهتافات والضحكات، فقد كانت من ذلك النوع.. الذي كان يبحث عنه جمور المسرح البريطاني ولا يجده: الفن لـ«الحياة».. لـ «الناس»، ولـ«همومهم» وقضاياهم.. وليس الفن.. لـ «الفن» الذي كان السمة الغالبة على مسرح القرن التاسع عشر، الذي عرف بـ«برناسيته» فقد ضحك في تلك المسرحيات وأضحك البريطانيين وسخر منهم ومن عاداتهم وديمقراطيتهم وأحزابهم السياسية التي تدفع بـ «مجانينها» كل خمسة أعوام إلى قاعة (البرلمان).. بل ومن تقاليدهم الإمبراطورية البالية التي تجعل من حرس القصور والمتاحف بقبعاتهم السوداء الطويلة على رؤوسهم.. وكأنهم خُشب مسندة، لا يرف لها جفن، ولا يفتر لها ثغر.. حتى ليحسب المتأمل فيهم بأنهم (تماثيل) من رخام. لا بشر.. من لحم ودم!!

* * *

مع مضي الزمن.. كانت تتفتق إمكانات (شو) الإبداعية، وتتعتق سخرياته وهي تزداد عمقاً وألقاً.. حتى باتت جزءاً من صورته.. من سيرته، فليس هناك من لا يعرف قصة لقائه الأول - وهو الاشتراكي العمالي الذي لا يأكل اللحوم ولا يدخن ولا يشرب الكحول -.. مع زعيم المحافظين الأشهر (السير ونستون

تشرشل) بـ «سمنته» وأبهته و«سيجاره» الفاخر الطويل، عندما قال له (تشرشل) بعد أن رآه لأول مرة: (من يراك يا مستر شو.. يشعر كما لو أن في بريطانيا (مجاعة)..؟

فرد عليه (شو).. وعلى الفور: ومن يراك يا سيدي الرئيس.. سيعرف أسبابها..!!

إلى أن أبدع رائعته الخالدة: مسرحية (العودة إلى ميتو شالح).. التي أفسحت له مكانه فوق القمة، والتي شاهدها العالم على خشبة المسرح، وقرأها عالمنا العربي في ترجمة الأستاذ أنيس زكي حسن في مطلع الستينات من القرن العشرين.. والتي تتحدث عن «الإنسان» و«أزمته» مع (الزمن) وقصره، الذي لا يمكنه من إنجاز مشاريعه وأحلامه.. فيموت متحسراً، آسفاً، نادماً، فـ «بطل» المسرحية الراهب «ميتو شالح».. المولود في (جنة عدن) قبل أربعة آلاف عام من ميلاد المسيح عليه السلام، والذي امتد به العمر حتى بلغ تسعمائة وستين عاماً، فرأى كيف تبدلت أعمار البشر بعد ذلك.. وأخذت تتناقص إلى الستين والسبعين وحتى إلى الثمانين.. ليعترض عليها بأنها ليست بكافية ليعرف الإنسان خلالها (معنى.. الحياة)؟ وهي بالتأكيد ليست بكافية لينجز فيها مشاريعه وأحلامه، وأن العمر المثالي.. «يجب أن يمتد لثلاثة قرون».. فماذا لو تبنت بعض الأحزاب السياسية في برامجها الانتخابية الدعوة لـ «العيش» ثلاثمائة عام..؟ أما حياة (ميتو شالح) وعمره.. فإن (آدم) في جنة عدن يعترض عليها قائلاً: (كن عاقلاً يا ولدي.

أتستطيع أن تحتمل العيش إلى الأبد)؟، ليضيف قائلاً بحزن ومرارة: (لقد عرفت معنى الجلوس والتأمل.. تحت رعب الأبدية، والخلود. فكر في ذلك يا رجل)!!

وعند عرضها لأول مرة فوق خشبة المسرح القومي البريطاني.. كانت تثير عواصف من الإعجاب بـ (خيالاتها) المثيرة، وحوارها المتوتر الجذاب، وأسئلتها المحيرة، وسخرياتها الذكية التي لم تنقطع طوال ساعات عرضها، فلم ينس شو.. صديقه (اللدود) السير ونستون تشرشل (!!) فبعث له ببطاقتي دعوة لحضور عرضها في الأسبوع التالي.. وقد أرفق بهما رسالة تقول: (هاتان بطاقتان.. لحضور مسرحيتي الجديدة: واحدة لك، والأخرى لأحد أصدقائك.. هذا إذا كان لك أصدقاء)..!!

لقد كانت (سخرياته) من الحياة، والزمن، ومن أصدقائه وأعدائه.. بل ومن نفسه، تتدفق بتلقائية عجيبة على الدوام.. فيما يكتبه، وفي ما يقوله.. حتى ليحسب الآخرون بأنه ليس بريطانياً في أصوله وجذوره، فقد عُرف عن الإنجليزي - أو البريطاني.. بصفة عامة - بأنه (بارد)، صامت، متعال. لا حد لصبره وطولة باله، أو كما قال أحد الزجالين المصريين الظرفاء عنهم (الإنجليز.. حالهم يغيظ)، لكن (شو) كان.. وكأنه الفريد بينهم، فعندما قدمت مسرحيته (الإنسان والسلاح) واستقبلها الجمهور كالعادة بعاصفة من التصفيق والهتافات.. وصعد شو إلى خشبة المسرح ليحيي ذلك الجمهور ويرد على تحيتهم.. انتصب أمامه أحد

حضور المسرحية معرباً عن سخطه على المسرحية، ومنكراً.. لهذا الإعجاب الذي لا تستحقه، فتوجه إليه شو.. مواسياً وقائلاً: (أنا معك يا صديقي.. وأنت على حق، ولكن ماذا نستطيع أن نفعل أنا وأنت أمام هذا الجمع الزاخر من المعجبين)..!!

* * *

عندما قارب (الثمانين).. كان ناشرو أعماله القصصية والروائية والمسرحية ومقالاته الموسيقية والنقدية.. يتفقون على جمعها وإصدارها فيما عرف فيما بعد بـ (الأعمال الكاملة)، ليفاجئوه بها.. في عيد ميلاده القادم.. محبة وتقديراً وعرفاناً له واعترافاً بمكانته، فكانت المفاجأة من نصيبهم.. كما كانت من نصيبه!! إذ بلغت (مجلداتها).. ثلاثين مجلداً.. لتكون أول (أعمال كاملة) بهذا الحجم الفريد!! لقد ترجم معظمها - إن لم يكن جميعها - إلى كل لغات العالم.. وقرأها مثقفو القارات الست، فليس.. في المعمورة بينهم من لم يقرأ لـ «شو»، ويعجب به، ويردد سخرياته.. وربما يتمنى لو أنه كان (شو) آخر، أو أن يظهر شو.. آخر، بـ (أجماله) وتفاصيل مفرداته!!

لقد كان على حق ناشر مسرحيته الرائعة (العودة إلى ميتو شالح).. عندما قال في تقديمها: (إنها مسرحية الزمن كله، ومراحل الإنسان كلها، والبداية والصراع والنهاية.. بقلم شكسبير العصر الحديث، الساخر.. الذي كانت حياته نفسها أعجوبة الأعاجيب)..!!

نعم كانت أعجوبة الأعاجيب.

فلم تتخل عنه فيها ملكاته الإبداعية والفكرية.. ولم يتخل هو عن سخرياته ولواذع كلماته فيها.. حتى آخر لحظة من حياته، فعندما عثرت به قدماه.. وهو يقوم بتشذيب أوراق حديقة منزله وتنسيق زهورها وورودها، وأجريت له جراحة..أقعدته عن السير على قدميه، وجعلته يعتمد على كرسي متحرك وهو في الخامسة والتسعين، بين يدي ممرضة شابة.. مفتونة به وبأعماله وسحر كلماته كان يقول لها ذات يوم ضاحكاً شاكراً ساخراً: (كم تحاولين أن تحافظي على هذه التحفة العتيقة؟ لقد فرغت من الدنيا وانتهى الأمر.. أنا ذاهب لأموت)!؟

فمات - بعدها - عام ١٩٥٠م.. وهو في السادسة والتسعين من عمره، ليكون أول المتفجعين عليه، والباكين لرحيله.. والراثين لقدْره ومكانته: (المستر كليمنت اتلى) رئيس حزب العمال البريطاني الأشهر، وهو يقول: (لقد كان شو. أعظم سامر فكه من سمارنا.. وأعظم معلم لنا.. وما من إنسان عمل أكثر منه على شحذ أفكارنا)، وليكون ثاني عارفي قدْره ومكانته والفجيعة في فقده (الباندیت جواهر لآل نهرو) رئيس وزراء الهند الأشهر.. الذي قال: (بيرنارد شو جزء من تفكيرنا الفردي.. وهو جزء من المناخ الذهني لأزمتنا الراهنة)..!! ليدفن رفاته.. في (الويست منستر آبيه).. مدفن عظماء الإمبراطورية ولتحلق روحه مع الخالدين.. مع تلك الشموس التي لا تغيب أبد الدهر!!